مطبوعات مركز بدر العلمي والثقافي – صنعاء



القضاء والقدر

بقلم السيد العلامة الحجة

محمد بن محمد بن مطهر المنصور

إعداد

د. المرتضى بن زيد المحطوري الحسني



مكتبة بدر للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الثانية

١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م

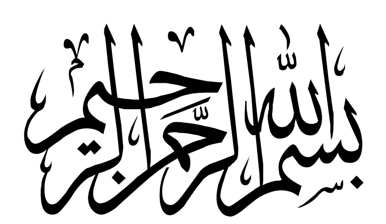
مكتبة مركز بدر للطباعة والنشر والتوزيع

الجمهورية اليمنية – صنعاء
تلفون: ٢٦٩٠٩١-٢
فاكس: ٢٦٩٠٧٩- ص- ب:٣٨٠١

Republic of Yemen- Sana'a
Tel:269091-2
Fax: 269079
P.O.Box:3801.

www.almahatwary.org
info@almahatwary.org

القضـاء والقـدر .
تـأليف: السيد العلامة الحجة: محمد بن محمد بن مطهر المنصور ، إعداد: د. المرتضى بن زيد المَحَطْوَري الحَسَنِي
الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م ، مطبوعات مركز بدر العلمي والثقافي – صنعاء
www.almahatwary.org



مقدمة الطبعة الثانية

لأن الكتابة في مسألة أن الإنسان مخير لا مسير ترميم للذات الإسلامية، واستعادة لثقة المسلم بنفسه، بعد أن ألحق القديرة والحشوية أذىً بالغًا بصورة الدين الناصعة، وتشويهًا مشينًا بصفحته النقية، وحاولوا – خدمة للظالمين– أن ينزعوا المسئولية كاملة عن المكلفين، فما عملوه من قبيح فهو مُقَدَّرٌ عليهم ، وصار المتهم هو الله سبحانه! أي سخافة وأي داء لحق بالجسد الإسلامي الطاهر؟!

ولقد أبلى الزيدية والمعتزلة بلاء حسنا في الذَّبِّ عن حياض الدين ، وقاد الإمام زيد بن علي عليه وعلى أبنائه وأهل بيت النبوة رضوان الله معركة فكرية جبارة لمواجهة العقائد الفاسدة .

وتنادى الأئمة وأشياعهم فملأوا الدنيا بالكتب الرائعة ، والمؤلفات العملاقة التي شَدَخَتْ أنف الْجَبْرِ ، وهشمت وجهه.

لولا أنها حبيسة في خزائن الزيدية ، أَو أسيرة في يد عصابات نهب التراث اليمني الإسلامي النفيس.

ونحن لا نألوا جهدا في إخراجها ، وإبرازها ، وها نحن بصدد إعادة طبع ورقة في هذا المجال هي بمثابة عصارة وخلاصة لعقيدة العدل والتوحيد، بقلم خبير بارع وإمام ليس له منازع ، إنه فخر اليمن والكنز الذي لا يُقدر بثمن ، محمد بن محمد المنصور نقدمها للقراء مصححة منقحة.

بقلم د.المرتضى بن زيد المحطوري الحسني

مقدمة الطبعة الأولى

بقلم د/ المرتضى بن زيد المحطورى الحسنى

يعتبر الوالد الحجة العلامة محمد المنصور حفظه الله من الرجال المعدودين فضلاً ونبلاً وجلالةً وخَلْقًا وخُلُقًا.

كنت أسمع الناس يتحدثون عنه بما يدل على مكانته في النفوس، وقد حضر بعض احتفالاتنا بالجامع الكبير ونحن طلبة بالقسم الداخلي بمدرسة دار العلوم، إلا أنني لم أجد سبيلاً للتعرف عليه، ربما لشعور صبي بصغر نفسه، ولم أدرك آنذاك أن أقرب الناس إلى الناس هم العلماء العاملون.

وبعد سنوات شرفني الله بتأسيس فكرة الدورات الصيفية بالجامع الكبير، إضافة إلى بث الروح العلمية فيه بشكل دائم لتعود إليه الحياة، والدور العلمي والتأريخي الذي تميز به مسجد بُنِيَ بأمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتليت ﴿يس﴾ بين مسمورته ومنقورته في حياة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

وبارك الله في ذلك المسعى وازدحم الجامع بالشباب الطيب، وقد كان مقفرًا مدقعًا من العلماء ومشائخ القرآن عدا حلقة صغيرة

يحييها شيخنا الجليل العلامة الزاهد المجاهد القاضي عبد الحميد احمد معياد مد الله في عمره[1] .

ثم صار الجامع الكبير يستوعب أكثر من أربعين حلقة، الحلقة الواحدة تربو على المائة طالب أحيانا، وَهَبَّ فتية نذروًا نفوسهم في هذا السبيل.

وقد شاءت العناية الربانية أن ألتقي صدفة الوالد محمد المنصور في منزل شيخنا القاضي عبد الله بن محمد بن محسن السرحي رحمه الله، الذي كان يُذَكِّرُ بالزمخشري وابن هشام ونحوهما حيث كنت أدرس لديه الكشاف وكافل الطبري في أصول الفقه، والمناهل في الصرف، والشرح الصغير في المعاني والبيان، ولشدة إِعجابي بالقاضي السرحي لم أكتف بالدرس في مسجد الفليحي، فقد استأذنته في زيارته إلى البيت للمذاكرة وحل بعض المشكلات.

وفي بيته لقيت الوالد المنصور الذي جآء لمذاكرة الشيخ السرحي وتقديم ما يجب له من التقدير والاحترام من رجل يعرف الواجب والوفاء والذوق كمحمد المنصور، ولا سيما والقاضي عبد الله السرحي على جلالة قدره في العلم يحب آل محمد ﷺ حبًّا

(١) توفي في ٢٨/ رجب / ١٤٢٢هـ . رحمه الله .

جمًّا، ويعمل بقوله ﷺ: (يا علي لا يحبك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق)، هو وقافلة الكبار كالفخري القاضي الحجة الزاهد عبد الله بن أحمد الرقيحي رحمة الله عليه، والقاضي الجهبذ المحقق العزي البهلولي رحمة الله عليه ممن لحقت بآخر أيامهم.

وبدافع الحاجة إلى العلماء تطفلت على القاضي السرحي والسيد المنصور الذي عَرَّفَني به القاضي عبد الله، وطلبت منهما العودة إلى الجامع الكبير والتدريس فيه، فأما القاضي عبد الله فَتَقَدُّم السن منعه من تلبية طلبي، وأما الوالد المنصور فرحب وبادر في اليوم الثاني مضيفًا بمجيئه رُوحًا وزخمًا وحياة وبركة لا توصف، وتبعه العلامة الحجة القاضي محمد الجرافي، وَحُمِلَتِ المحاولة لإحياء العلم محمل الجد.

وأعترف أني دَرَسْتُ سنوات جزى الله فيها مشائخي كل خير ولا سيما القاضي عبد الحميد معياد فهو شيخي الفعلي وقد أجازني مع حبي واحترامي لكل مشائخي الكرام، السرحي، والفخري الرقيحي، والسيد محمد بن علي لطف الشامي، والأستاذ حمود حوات، والقاضي إسماعيل الريمي، والقاضي محمد بن أحمد الجرافي وقد أجازني، والقاضي محمد البدري عافاه الله[1]، والسيد حسين

(١) توفي رحمه الله .

الظفري رحمه الله، والسيد حمود المؤيد، ومشائخي في القرآن سيدنا محمد علي العمري، والشيخ محمد بن حسين عامر، والشيخ يحيى ابن أحمد الحليلي، والشيخ حسن لطف باصيد، ولي منهم إجازات، إلا أني أشبه نفسي بالبيت المبني بإحكام إلا أنه بدون كهرباء، وذلك لأني لم أكن أعرف عن أصول الدين شيئا، حتى دخل في حياتي عالم فيلسوف في علم أصول الدين هو محمد المنصور، ودرست لديه قطرة من مطرة، وغرفة من لجة، إلا أني وصلت إلى يقين، وفتحت عيني على نور، ومشيت وراءه في طريق هدى. ومن جملة مقروآتي عليه مبحث القدر الذي سيتحف قارءه بعلم غزير، وحجة ناصعة. ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾(٩٠سورةالأنعام).

نبذة عن المؤلف

ولد محمد المنصور في ٨جمادى الأولى سنة ١٣٣٣هجرية قمرية في شهارة، وانتقل إلى صنعاء مع والده آخر سنة ١٣٣٨هجرية، ودرس في معلامة الخوجة عمر (الْكُتَّاب) بمسجد توفيق في بير العزب بصنعاء، وله ديوان شعر لا نكثر الحديث عنه فهو في طريقه إلى المطبعة.

وقد تزوج أكثر من امرأة ورزق من الولد أربعة أبناء محمد وعبد الوهاب وإبراهيم ويونس.

ونسبه إلى المنصور القاسم بن محمد بن علي المدفون بشهارة الأمير من جبال الأهنوم.

ومن سمات الوالد محمد ملازمة الذكر لله سبحانه وتعالى، وقد رزقه الله التواضع وسماحة النفس والسخاء ولاسيما العطف على طلبة العلم.

فلو لم يكن في كفه غير نفسه ... لجاد بها فليتق الله سائله

وهو شخصية لا تستخفها الأحداث، بل يظل كالجبل الشامخ ولا ينجر إلى الصراع ليؤيد فريقًا على فريق، بل يرى فيه المتصارعون متنفسًا ومفزعًا للجميع، معترفين بأن ساحته نظيفة ونفسه نقية. وهو مع ذلك شديد الذكاء، ومن غريب أمره أن الله نجاه طوال حياته من مزالق الإحتواءات منذ عمل مع الدولة إلى

يومنا أكثر من ٥٤ سنة إلى يومنا هـذا. وتقلـد مناصـب مرموقـة في كل هـذه الحقـب، فكـان أيـام الإمـام يحيى محـررًا لـوزارة الخارجيـة، وأيام الإمام أحمد ناظرًا للوصايا اليمنية، وفي فترةٍ أحدَ حكـام مقامـه وأحدَ كتابه.

وتقلـد في عهـد الثـورة عضـو مجلـس السـيادة "أول الثـورة"، ثم وزيرًا للعدل، ثم وزيرًا للأوقاف وعضوًا للمحكمة العليـا الاسـتئنافية المسماة حاليًّا محكمة النقض والإقرار.

والخلاصة فهو مثل الإمـام زيـن العابـدين بـن علـي بـن الحسـين، أجمع الناس على طهارته ونقاوة تأريخه، فلا ضرر منه ولا ضرار، بل رجل سلم وسلام، وأمن وأمان، وتقوى وعفة، وكرم ووفاء.

وقد استوفينا ترجمته في كتـاب بـرق يمـاني على قدسـية ا لإيمـان وهو يماني.

نَشْأَةُ الْقَدَرِ

تعود إلى القرن الأول، فقد بدأ الكلام فيه زمن بني أمية، ليبرر الملوك انحرافهم، وأن ما فعلوه من خير وشر فإنما هو من الله قدَّره وقضاه. وأخطر من ذلك أنهم جعلوا بسطاء الناس وسوادهم يعتقدون بأن الصبر على الظلم أجر عظيم، لأنه إيمان بقدَرِ الله، وإنكارُه اعتراض على الله.

وقد اشتد الخلاف حول نسبة القدر، فكل فريق ينفيه عن نفسه ويرمي به خصمه. واشتد الخلاف كذلك حول مفهومه، فالزيدية والمعتزلة ومن معهم يرون أن القدري هو الذي يعتقد أن الأعمال التي يفعلها الإنسان مقدرة من الله، ولا خيار له ولا اختيار، ويرون في نسبة المعاصي إلى الله وأنه قدَّرها هدمًا للشريعة وافتراء على الله، فلا يجوز أن يقدر الله شيئًا ويعذب عليه.

وذهب آخرون إلى القول بأن القدري هو عكس ما ذكر، وهو الذي يُثْبِتُ للإنسان قُدْرَةً، إذ لا قدرة لأحد مع الله. وبناء على قولهم هذا فلكي تسلم من تهمة القدر فَاعْتَقِدْ أن الزنا وشرب الخمر والظلم مقدر من الله، وقل: إن الله يعذب مَنْ قَدَّرَ عليه شيئًا من ذلك. فاختر أي المذهبين شئت.

وقد تقدم جهم بن صفوان بالقدرية خطوات إلى الجحيم، حيث قال: إن الإنسان بمثابة ورقة في مهب الريح، وقلم في يد كاتب، وتِبْنَةٌ في مجرى السيل. أي أنه مجبول مطبوع على الكفر أو الفسق أو الإيمان لا دخل له ولا حول ولا طَوْلَ ولا ملامة، فما هو إلا مُنَفِّذٌ لقدر الله، وأداة للجريمة، والمسؤلية كلها على الله سبحانه وتعالى.

وإن شئت التعقيب على هذا فقل: إن إبليس اللعين ما كان يحلم بمثل هذا الإنجاز، وإن كان قد بذر هذا المذهب فيما حكى الله عنه، حيث قال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾(الحجر:٣٩) ، لكنه نسب إلى نفسه التزيين فقال: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ﴾ (الحجر:٣٩). وسأترك الكلام لأهله، فالوالد محمد المنصور حفظه الله سباق غايات، وصاحب آيات في هذا المضمار.

القضاء والقدر



مقدمة

لا يتم الإيمان بالله إلا بالإيمان به على حقيقته التي هو عليها، ولا يتم الإيمان به على حقيقته إلا بالإيمان بقضائه وقدره، وإلا فالإيمان كَلاَ إيمان، وعلى رأس الإيمان اليقين بوجوده، وبأنه فاطر السماوات والأرض، وكل كائن فيها وخارجها بقدرته، وأنه عليمٌ بكل شيءٍ جلَّ ودقَّ علمًا أَزَلِيًّا، وأنه المهيمن الذي لا يغفل عن شيء، ولا عن حال من أحواله، ولا يخرج شيء عن أمره وإرادته، ولا ينسى شيئًا مهمًّا صغر شأنه وتلاشى حجمه، ولا يشغله شأن عن أي شأن، ولا تأخذه سِنَةٌ ولا نَوم، قديرٌ لذاته على إيجاد المعدوم، وإعدام الموجود، قال تعالى: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ (البروج: ١٦) وأنَّ ما قد حدث أو يحدث من جسم وعَرَضٍ ومعانٍ لا تحدث إلا طبق علمه الأزلي، لا يخالفه البتة .

ويستحيل عدم مطابقته لعلم الله وأن خلقه وإيجاده بقدرته لا بعلمه كما توهم متوهمون فضلوا وأضلوا عن سواء السبيل، لما سأوضحه فيما بعد ؛ لأنك إن لم تؤمن بعلمه الأزلي شَبَّهْتَهُ بخلقه وأجزت عليه الجهل، وإن لم تؤمن بقدرته الأزلية على كل شيء

أجزت عليه العجز، وأن تؤمن أن كلَّ كائن كَوَّنهُ الله طِبْقَ الحكمة المحضة، ويستحيل خُلُوُّهُ عن الحكمة.

وكل أمرٍ أَمَرَ به المكلفين مطابقٌ للحكمة والصواب والمصلحة، وكلَّ نهيٍ مطابق للمصلحة في ترك ما نُهُوا عنه؛ لأن فعله ضرر وفساد وسيأتيك أنه يُطلق القضاء أحيانًا على هذا؛ كقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾(الإسراء: ٢٣)فإذا شككت في قدرته أو علمه أو حكمته لم ينفعك الإيمان بمجرد الوجود، وكنت شاكًّا أو مؤمنًا برب عاجزٍ أو جاهل أو عابث، وهذا لاوجود له إنما الموجود الواحد القدير العليم الحكيم سبحانه وتعالى عما يقول الكافرون. والإيمان بالعلم الأزلي أساس الإيمان بالقضاء والقدر، والشك فيه أو إِنكاره شكٌ أو إنكارٌ لهما، والذين لم يؤمنوا بعلم الله زعموا أنه لا يعلم بالأشياء إلا عند حدوثها ويجيزون البَدَآء على الله، وحدوث ما لا حكمة فيه تعالى الله عن ذلك، وهذا الصنف موجود في كل زمان، وكذلك المنكرون والشاكُّون في وجود الله من حيث هو، وكلاهما بحكم جهله المركب لا يؤمن بالقضاء والقدر؛ لأن الإيمان بهما فرع الإيمان بالله وقدرته وعلمه وحكمته، وإنكارهما فرع الشك والجحود.

وسأوجز لك ما يزيل عنك الشك بتاتًا في سطرين إن أعرتني قلبك وسمعك قليلاً في تأملهما، ومنهما ومن الإمعان فيهما ستنطلق بعون الله إلى فهم ما يأتي بعد ذلك وهما :

أولا: يستحيل أن يوجد شيء شيئًا مثله .

ثانيا: يستحيل أن يوجد شيء من ذات نفسه؛ إذ هو عدم، والعدم لا تأثير له.

ثالثا: يستحيل أن يوجد هذا التنظيم، والنظام الرائع المذهل في كل كائن من جهة جاهل عاجز.

رابعا: يستحيل أن يوجد هذا بدون هدف وغاية، يهدف إليها وأن يؤول إلى فوضى أو إلى لا شيء ؛ لأن هذا يطعن في الحكمة وينافيها، كما ينافي سائر صفات الله سبحانه ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون: ١١٥).

[معنى: أن تؤمن بالقضاء والقدر خيره وشره]

سئلت عن معنى: وأن تؤمن بالقضاء والقدر خيره وشره؟

فقلت: المرادُ والله أعلم أن تؤمن أنَّ ما قضى الله بوقوعه في مُلكِه مما تحبُّه أو تكرهه هو مطابق للحكمة والعدل، وأنه أَحْكَمُ مما يلائم هواك، وتتمنى وقوعه أو عدم وقوعه.

مثلاً: قضى بإيجاد الحياة الدنيا، وقضى بأن تكون حياةَ ابتلاءٍ واختبار، وجَعْلُها حياةَ اختبار يقتضي أن يكون فيها ما يسوءُ وما يسرُّ؛ ليمتحنَ المكلفَ بالسَّراء: أيشكر عليها أم يكفر؟ وتُبطره النعمة وليمتحنه بالضراء: أيصبر فيؤجر أم لا؟

فإذا حدث للمكلف ضراءُ من فعل الله، كصاعقة أو طوفان أو زلزال أحزنه على مال أو ولد أو صديق أو حبيب أو أُصيب بفعل مخلوق، كأن يقهره ظالم، أو ينتصر عليه معتدٍ أثيم فلا يقل: كيف مَكَّنَ الله الظالم من ظلمي وقهري؟ أو لماذا لم يعفنا الله من حياة الدنيا وبلائها ويسكنا جنَّته ابتداءً، أو كيف أخذ الله مني ابني ووحيدي؟ أو كيفَ فَلَجَتْ وقَهَرَتْ بَغيٌّ سيدًا وحصورًا ونبيًّا من الصالحين؟، فقتله الفَسَقَةُ الفجرة ارضاًءً لها، وعاشوا بعده يختالون في فسقهم حتى حين، أوكيف لم يعجل الله نقمته أو ينصر المحقين،

ويـنزل بأسـه بـالمبطلين؟ أو كيـف اجتاحـت الكارثـة داري وأنـا مستقيم، وما أصابت دار فلان، وهو غير مستقيم؟

فإذا تساءلتَ بنحو هذا: لماذا قضى اللهُ به، وبوقوعه في ملكوته، وهو قادر على أن لا يقضي به، وعلى أن لا يحدث فتقـول: إذن ألا يدعو هذا إلى الشك في حكمة الله بل في وجـوده، فـاعلم حينئذ أن وقـوع مـا هـو مـن فعـل الله مطـابق للحكمـة والـراجح والصـواب والعدل والرحمة، وأن وقوع ما هو من فعـل المخلـوقين أثـر مـن آثـار قضـآء الله سـبحانه بـالتمكين لعبـاده مـن فعـل الخـير والشـر، وأن التمكين حكمة، وراجح وصواب، وأن التمكين من فعل الشرور لا يستلزم الرضى بحـدوثها، قـال الله تعـالى: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ﴾ (الزمر:٧).

فلـم يمكنـهم مـن فعـل الشـر؛ لأنـه يريـده ولا ليعملـوه، ولكـن ليمتحنهم بالتكليف بتركه ولا يكلفون بتركه إلا وهم قادرون على فعله، وإلا امتنع التكليف، فكلفهم ليمتحنهم فيثيبـهم علـى اجتنابـه، فإذا تجرأ مكلف على فعله، فإن كان مما يضر بالغير كالظلم فوقوعـه عليه محنة لا بد من التعويض لـه وإنصـافه أيضـا، وبالنسـبة للمتعـدي فلا بد من عقابه في دار الجزآء، فلا يكون إذن تمكينه عبثًا ولا جهلاً وظلمًا، وبالنسبة للمُعْتَدَى عليه فإنه أيضًا يؤجر على الصبر إن صبر،

وتكفر عنه ذنوبٌ بصبره وبإيمانه بأن تخلية الظالم حكمة ربانية لاعبثٌ ولا جورٌ .

كما أن بعض الذنوب لا يكفرها إِلاَّ همُّ المعيشة، وله عليه أيضًا أعواضٌ مع ذلك.

هذا مما يفهم من لفظ الحديث الشريف: (أن تؤمن بالقضآء والقدر خيره وشره) [1] .

ومن القضاء والقدر ما يصيب البهائم، والأطفال، وسائر الحيوانات؛ فعلينا أن نؤمن أنَّ التخلية بين قويها كالشاهَين والسباع البرية والبحرية، وبين ضعافها كالحمام والضبآء ونحوهما إنما كانت لحكمة ويظهر لنا طرف منها في الجزآء والنعيم الأخروي في حياة هي أفضل وأدوم كما أعتقد والله أعلم.

---

(١) أخرجه مسلم في حديث طويل بلفظ ((..... قال –أي – السائل –فأخبرني عن الإيمان قال – أي الرسول ﷺ :(أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره) ..) (٣٧/١ رقم١) والنسائي (٩٨/٨) بنحوه، وأحمد بن حنبل في مسنده (٧٠/١ رقم ١٩١) عن عمر بن الخطاب والسائل هو جبريل عليه السلام كما في رواية الحديث.

أو على الأقل أفضل وأطول كما يقوله بعضٌ عند تفسير قوله تعـالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَـٰكُمۡ عَذَابًا قَرِيبًا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَـٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ (النبأ: ٤٠).

وعلى كل فما أوتينا من العلم إلا قليلاً، قال رجل للمعري: لم لا تأكل لحم الحيوان ؟ . قال: أرحمه .

قال: فما تقول في السباع التي لا طعام لها إلا لحوم الحيوان؟ فإن كان لذلك خالق فما أنت بأرأف منه، وإن كانت الطبائع المحدثة لذلك فما أنت بأحذق منها، ولا أتقن عملاً ! فسكت.

وبالنسبة للأطفال ففيها أعواض لهم أبديه تبوءهم منازل الذين أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وجاهدوا، وفيها مع هذا اعتبار للكبار، وعظة تحملهم على فعل الخيرات، وترك المنكرات، ولايخلو ما يصيبهم من مجموع الحكمتين البتة فافهم .

إذا عرفت هذا فاعلم أنَّ الخير الذي يجب عليك الإيمان به هو نعمته التي لا تحصى، ومنها الأشجار والأثمار والهواء والأنهار، ومنها أصول النعم الست:

١- خلقُ الحي، ٢- خلق حياته، ٣- خلق قدرته، ٤- خلق شهوته، ٥- تمكينه من المشتهيات، ٦- استكمال عقله.

ومنها: العافية؛ ففي الحديث الشريف: (كم لله من نعمة في عرق ساكن)[1]، ومنها: إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وفي المقدمة القرآن، ومحمد خاتم المرسلين أرسله بالهدى ودين الحق، بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وأنزل عليه أفضل الكتب، جامعًا لكل خيرٍ وهدى، مانعًا لكل شرٍ وردى، تبيانًا لكل شيء يخرج أهله من الظلمات إلى النور .

ومنها: كل ما ننتفع بوجوده، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (البقرة:٢٩). ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (النحل: ٥) إلى قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل:٨).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ﴾ (النحل:٦٦) إلى آخر الآيات، والشمس والقمر والنجوم والبحر وكل شيء فلنا حظٌ من الانتفاع بوجوده، علم هذا من علم، وغفل عنه من جهل، وجهله من غفل .

---

(١) أخرجه العجلوني في كشف الخفاء ١٢٨/٢ رقم ٢٠٠٣ وعزاه إلى العسكري عن قتادة. وفي الحلية في ترجمة سفيان الثوري.

وهناك قسم آخر من الخير، وهو ما يصدر إليك من الخلق، كالصدقة، والهبة، والقرض، والعفو، وإغاثة الملهوف، وتأمين الخائف، وغير ذلك، فما كان من الخير من فعل الخلق، فلك أن تنسبه إلى الله باعتبار أقداره لهم عليه، وتوفيقه لهم، ولك أن تنسبه حقيقةً لا مجازًا إلى فاعليه وعامليه.

وهذا الخير وذلك الشر الذي من فعل المخلوقين ليس داخلاً في القضاء والقدر الذي كلفنا بالإيمان به إلا بمعنى علم الله بذلك لا غير. فالمراد بهما ما كان من الله سبحانه من الإيجاد والإحكام قال الله: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ (فصلت:١٢) أي خلقهن وأحكم خلقهن وأتقن صنعهن وصنع كل شئ خلقه وأحسن خلقه؛ لأنك إذا لم تؤمن بأن الله الخالق كنت كافرا، وإذا لم تؤمن بأنه حكيم في كل خلقه وأمره كنت كافرًا بحكمة الله وعلمه لهذا أوجب الإيمان به.

وقد يأتي في اللغة القضآء لمعان غير هذا فيكون تارة بمعنى العلم فيصح أن يكون بهذا المعنى من المراد بالقضآء الذي كلفنا الله بالإيمان به؛ لأن علم الله بكل ما قد حدث أو يحدث أو يستحيل حدوثه علم أزلي لم يسبقه جهل لشيء من ذلك، وإذا لم يؤمن المكلف بأن علم الله سابق لا أول له كان كافرًا بصفة الله التي هي

عليم، وجاهلاً لربه؛ لهذا فرض علينا الإيمان به على حقيقته التي هو سبحانه عليها. ويكون القضآء تارة بمعنى الإلزام قال تبارك وتعالى:﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ (الإسراء:٢٣) أي ألزمكم، ويصح أن يدخل هذا المعنى في المراد بالقضآء الذي كلفنا الله بالإيمان به على معنى أن حكمه بوجوب توحيده المطابق لوصفه بالوحدانية، وتحريمه؛ لاعتقاد وجود شريك له في ألوهيته وربوبيته أمر ثابت في الأزل لا مبدل لحقيقته، فيجب على المكلف العلم بهذا أو الشهادة به وبأولوية كل ما قضى به.

[القدر]

أما القدر: فإما أن يكون مرادفًا للقضآء كما قال تعالى﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ (يس:٣٩) أو بمعنى الإحكام والإتقان، قال تعالى:﴿قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ (الإنسان:١٦) وقال تعالى:﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ (الفرقان: ١-٢) وقوله

تعالى:﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر:٤٩)، ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ (فصلت:١٠) ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ (الأنعام:٩٦) أو بمعنى خلق كما فسر بهذا قوله:﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾، وبمعنى العلم كما فسر به قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ (النمل:٥٧) أي علمنا من حالها أنها من الهالكين، ولعل المراد بالقدر ما يرادف القضآء ويستأنس له بإفراد الضمير حيث لم يقل: خيرهما وشرهما، أو أن المراد به وقوع المعلوم وحدوثه مطابقًا للعلم. والله أعلم.

فالقضآء على هذا هو علم الله السابقُ الأزليُّ بما سَيَخْلُقُ، وما يحدُثُ داخل المخلوقات، من أحداث صغيرها وكبيرها، من فعله أو فعل خلقه.

والقدرُ حدوث المعلوم ووقوعه، أي كان يسمى قضآء قبل حدوثه، وقدرًا بعد حدوثه، فالقضآء والقدر الواجب إيماننًا به هو: ما كان ويكون من فعل الله طبق مشيئته وحكمته، كالصواعق والزلازل والطوفان والعقاب الدنيوي لفردٍ أو لأمةٍ بما اكتسبوا، وكالهرم والضعف والوهن .

هذه أمثلة للمكاره، وكالموت يبتز وحيدك، وفلذة كبدك، فتحزن. أو تجتاح الزلازلُ أو الصواعقُ أو طوفانٌ مالَك ودَارَك، أو تفجعك في حبيب أو صديق حميم، ومن أمثلة الخير الذي نحن

مكلفون بالإيمان به: النعم التي نتقلب فيها، وقبول الله لتوبة التائبين، وعدم إغلاق الباب في وجوههم وغير ذلك .

والإيمان الصحيح بالله وصفاته على ما هو عليه غير ملحد في أسمائه وصفاته وغير مفتر عليه ما تقدس وتنزه عنه، فله صفات ثبوتية مثل:حي، موجود، عليم، قدير، حكيم، عدل، رحيم. كما أن له صفات سلبية، مثل: لَمْ يَلِدْ ولَمْ يُولَدْ ولَمْ يَكُنْ لَهُ شريك في الملك والخلق والأمر، ومثل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (يونس: ٤٤).

فمن صفات الثبوت ما نحن بصدد الكلام عليه، وهي أن علمه المحيط بكل ما قد حدث أو يحدث أو يستحيل هو علم أزلي لا أول له، غير مسبوق بعدم ما.

وعدم الإيمان بذلك كفر يستلزم أيضًا كفرًا بحكمته، وثمة من يقول بهذا وذاك، ويزعمون أن الأمر أُنُفٌ أي أن الله لا يعلم بالحادث إلا عند حدوثه لما يترآءى لهم من تصورهم الخاطىء القاصر أن بعض الماجريات[1] لا حكمة فيها، ولا فرق بينهم وبين

(١) كالخنفساء والثعابين والحشرات الضارة .

الكافر بوجود الله في أن إيمانهم كلا إيمان، وذلك نتيجةً لسوء تأويلٍ لدليل صحيح، أو اعتماد على سقيم كما قيل:

جَاءَتْ أَحَادِيثُ إن صَحَّتْ فَإِنَّ شَأْنًا ولَكِنَّ فِيهَا ضُعْفَ إِسْنَادِ

ومن البلوى أن اقتلاع الشبهة من ذهن الجاهل المتعالم، ومن ذهن المتدين المتعالم، ومن ذهن شديد الألفة لما دبَّ وشبَّ عليه – يكادُ يلحق بالمستحيل، ولولا ذلك ما رأيت على الأرض مئات الأديان، وآلاف النحل، والمذاهب الخيالية، التي أخصبها العناد والغباء، لكنهم لما استهام بهم الخبيث وأسلموا له قيادهم – استطاع أن يجرجرهم بعد ذلك إلى إنكار المعلومات، ومكابرة المعقولات، وفتح باب الجهالات، حتى استطابوها واستناموا إليها وتوارثوها جيلاً بعد جيل، وقد استدرجهم الشيطان بوسوسته للكفر بوجود الله ولنفي علمه وحكمته، عن طريق التساؤل: لماذا خلق الله الحشرات الضارة ؟ ولماذا يبتلي بالمحن أهل طاعته ؟ ولماذا تنزل الآلام والأسقام بالأطفال –ولا ذنب لهم– وبالبهائم أيضا؟ ولماذا تتسلط جوارح الحيوانات وسباعها على ضعافها، إذا كان الله حكيمًا ورحيمًا ؟ ولماذا يغلب المبطلون المحقين، وينعم الكافرون، ويشقى الصالحون ؟

ونحو هذه التساؤلات التي يعيى بها الجهال المتعالمون، ويعرف الحق فيها العلماء المحققون المخلصون قال الله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (العنكبوت:٢).

وقد نبهت أول هذه الكلمة أن الدار دار فناء وابتلاء، ولا يتم الابتلاء إلا بالتمكين مما كلفنا بفعله وتركه، وأن التمكين حكمة وصواب، وأنه لا يقتضي رضى الله بما يترتب على وجوده من القبائح، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الملك:٢) وقال سبحانه: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ (الأنبياء:٣٥) وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾(الكهف:٧:٨) وقال سبحانه – مصغرًا لشأن الحياة ومتاعها: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝٢٠٥ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ۝٢٠٦ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ (الشعراء:٢٠٥-٢٠٧)فإذا قال متسائل – في نفسه:- لماذا ترك الله الأقوياء المبطلين يتغلبون على الضعفاء المحقين؟ أو لماذا لا يعجل الله نقمته بنصر المظلوم، فانظر ما سبق، وإلى مثل قوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون:١١٥) واعلم مع هذا أن الحياة الدنيا قائمة على سُننٍ ونواميس ثابتة، ومنها: أن

يتغلب القوي سواء كان مؤمنًا أم كـافرًا على الضـعيف سـواء كـان مؤمنًا أو كافرًا ؛ فعنصر التغلب في الـدنيا هـو القـوة، وهـو مـن تمـام البلـوى والاختبـار والاختيـار، وعنصـر التغلـب في الآخـرة هـو الحـق والحجة، وهل تكون الدنيا دار امتحان إلا بهذا؟.

فأما لو عجل ثواب المحسن فيها وعقـاب المسـيء؛ فإنـه لا فضـل لصـلاح أحـد إذ هـو في حكـم الملجـأ لتـرك المنكـر، لكـن إذا أدى المؤمنون واجباتهم واستقاموا وفعلـوا الأسـباب الـتي هـي مـن عناصـر الانتصار على المبطلين فإن الله يمدهم بنصره مع أخـذهم بالأسـباب، وإن كان عدوهـم أكثر عـددا، وأقـوى سـلاحا، كمـا قـال سبحانه: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة:٢٤٩) فإن قيل: فكيف غَلَبَ المشركون يوم أحد؟ فقل: كـان الله قـد أمَـدَّهُم بالنصـر وهزمـوا الكفـار، وقتلـوا طلحـة بـن أبي طلحـة العبدري، كبش القوم وسيد فرسانهم، وقتلـوا بقيـة حملـة اللـواء مـن بني عبد الدار، ومـن غيرهـم – زهـاء ثلاثـين بطـلاً – وولَّـى الكفـار منـهزمين، وسـقط لـواؤهم، وانتـهب متـاعهم ومقـامهم كـان هـذا والمؤمنون نحو ربع الكفار في العدد أو أقل، لكن جاءهم النصـر وإن كانوا قِلَّة، فلما خالفوا وعصوا وتركوا حماية ظهرهـم تغلب الأقـوى والأكثر عددًا وعُدَدًا كما تقضي به سـنة الحيـاة، ولهـذا قـال الله لهـم

موبخـــا: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَـٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ (آل عمران: ١٦٥) أي هو من عملكم ومـن صـنعكم، ما لحقكم من المصاب والهزيمة ليس ذلك من الله[1] .

وفي واقعـة كـربلاء كانـت مسـؤلية الكارثـة على الـذين نكثـوا عهـودهم، وخلفـوا وعـودهم، ولـو صـدق عشـر عشـرهم وأخـذوا بالأسباب لانتصروا، أو لم تحدث المعركة بين نحو أربعين فما دون مشـاة لـيس فـيهم إلا فَرَسَـان، وبـين أربعـة آلاف فـارس؟. وهكـذا القـول في كـل مـا يـدعو إلى الشـك في وجـود الله، أو في حكمتـه ؛ فالدنيا دار عمل لا دار جزاء، على أنَّ الإرادة الربَّانيـة أحيانًـا تجـري بما يخـالف نـواميس الكـون لحكمـة يعلمهـا كإهلاكـه لقـوم نـوح، ولفرعـون وقومـه، وإرسـال الجـراد علـيهم وغيرهـا وتسـليط الأسـد

(١) قال ابن جرير الطبري في تفسير هذه الآية: ﴿ ... قلتم أنى هذا؟﴾ يعني قلتم لما أصابتكم مصيبتكم بأُحُد: أنى هذا؟ من أي وجه هذا؟ ومن أين أصابنا هذا الذي أصابنا ونحن مسلمون وهم مشركون وفينا نبي الله ﷺ يأتيه الوحي من السماء وعدونا أهل كفر بالله وشرك، قل يا محمد للمؤمنين بل من أصحابك: هو من عند أنفسكم، يقول قل لهم أصابكم هذا الذي أصابكم من عند أنفسكم بخلافكم أمري وترككم طاعتي لا من عند غيركم ولا من قبل أحد سواكم. انظر جامع البيان للطبري (١٠٨/٤) .

لأكل عتبة بن أبي لهب[(١)] لما دعا عليه النبي ﷺ مع قوله تعالى في شأن من شئون يوم أحد: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (آل عمران:١٢٨) .

وقول ملك الجبال له يوم الطائف: (إن أردت يا محمد طبقت عليهم الأخشبين) وحقيق بك أن تمعن النظر فيما أنزل الله في أمر أحد وأمر بدر، وتدبر جميع الآيات الكريمة في الموضوع فهناك علم جَمٌّ ونورٌ مبينٌ. ومن الحكمة في حدوث مثل هذا نادرًا تنبيه الخلق، واللطف بهم وإيقاظهم إلى أن السنن الكونية والنواميس خاضعة لأمر الله ولمشيئته فإذا أراد شيئًا قال له كن فيكون .

ومن ذلك ما رواه السبكي – في طبقات الشافعية عن ثقات: لا سبيل للشك في صحة الواقعة، وهي أن امرأة اسمها "رحمة" من مدينة هزار شف[(٢)]، عاشت نحو عشرين عاما لا تأكل ولا تشرب بعد أن رأت زوجها الشهيد في المعركة ليلة قُتِلَ، فقال لها: كفاك

(١) وبجمل حكاية ابن أبي لهب، فإنه لما أظهر محمد ﷺ دعوته أمر أبو لهب ابنيه عُتْبَةَ وعُتَيْبَة بتطليق ابنتي نبي الله محمد ﷺ، وكانا متزوجين بهما، وحصل من عتبة إيذاء للنبي ﷺ، فدعا عليه بأن يسلط الله عليه كلبة، فخرج عتبة مع رفقة له في بعض أسفاره، فجاء الأسد في إحدى الليالي طائفًا بهم، فلما وصل إليه نشله وقتله. انظر دلائل النبوَّة (٢/٣٨٣).

(٢) مدينة من مدن فارس.

الله مؤنة الأكل والشرب، وبعد أن أطعمها شيئًا -وكانت صائمة؛ فحياة إنسان عشرين عامًا لا يأكل ولا يشرب آية من الله خارقة للنواميس، وأنصح بالاطلاع على هذه القصة؛ فمعرفتها مفيدة، ومانعة من الشك في وقوعها.

وهذه التساؤلات الآنفة الذكر قد أمر الشيطان بها واسترق عوالم لا تحصى في كل زمان ومكان، وفي كل أمة خلت فأوقع بها فريقًا في إنكار وجود الله، وأوقع فريقًا في ما يضاهيه[1]، واستغل مع كل فريق ما يقبله فهمه ويروق له، فإنه إذا عجز عن تلحيد أسيره وعن إقناعه بإنكار وجود الله -لوى عنقه وثناه إلى ما يقوم مقام الكفر، وهو القول بالجبر.

وأكد لهم أن القول به - هو التوحيد الصحيح، والتعظيم الحقيقي لله، والتقديس له عن الشريك، وزخرف لهم شبهًا منها أن للمالك أن يفعل في ملكه ما يشاء، وهو حق يراد به باطل؛ تستطيع أن تفحم الشيطان فتقول له: ولكن الله لا يشاء ذلك، ألم يقل: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ (الزمر: ٧) فكيف يشاء ما لا يرضى، هذا محال .

(١) أي إنكار وجود الله.

ومنها: أن الله ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ (البروج: ١٦) فقل: ولكن الله لا يريد القبائح، وعلى رأسها الظلم، فكيف يخلق إنسانًا من العدم ضعيف لا حول له ولا قوة ولا إرادة ثم يحمله جبرًا على الكفر؛ ليعذبه بعد ذلك في النار خالدًا ؟ وكيف يكون هذا وهو أرحم بنا من أنفسنا ؟ وكيف يقع هذا وهو يقول: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (فصلت :٤٦) و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾؟ (يونس:٤٤) فتأمل. لكن الاستدراكية.

ومنها، قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ (الزمر: ٦٢)، فقل: العموم هو لكل ما يدل على قدرة الله وحكمته وإتقان صنعه، ولم يأت إلا في هذا السياق؛ فتأملوا الآية في الرعد [(١)] والزمر [(٢)] والأنعام [(٣)]؛ فإنما أتت في سياق هذا مثل قوله تعالى: ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ (النمل:٢٣) فإنها أتت في سياق الكلام على وصف

---

(١) آية رقم: ١٦ ، وهي قوله تعالى: ﴿قل الله خالق كل شئ﴾ .
(٢) آية رقم: ٢٦، وهي قوله تعالى: ﴿والله خالق كل شئ﴾.
(٣) آية رقم: ٢٠١، وهي قوله تعالى: ﴿ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شئ فاعبدوه﴾،وكذلك في سورة غافر قوله سبحانه: ﴿ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو﴾ رقم: ٦٢.

ملك ملكة سبأ، و لم يقصد إلا عموم ما يفتخر بحيازته الملوك، فلم تؤت ملك السماء، ولا ملك الأرض ومن عليها، ولا أحيت ولا أماتت، فالسياق إذن مخصص للعموم فلا يدخل فيه قبيح اعتقاد المجبرة والمرجئة، ولا قبائح أعمال العباد، بل ولا صلاحها لا من قريب ولا من بعيد، ولا يريبك في الحق ما تشبثوا به من أدلة، فلن تخرج عن تحريف الغالين، أو انتحال المبطلين، أو تأويل الجاهلين، وما أظهر الحق هناك لمن اطرح هواه لكن:

حُكْمُ الهَوَى يَتْرُكُ الأَلْبَابَ حَائِرَةً ... ويُوْرِثُ الصَّبَّ طُولَ السُّقمِ وَالعِلَلِ
وحُبُّكُ الشَّيء يُعْمِي عن مُقَابِحِهِ ... وَيَمْنَعُ الأذنَ أن تُصْغِي إلى الْعَذْلِ

ومنها: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ (الصافات:٩٦) وقد أوضحت سفه المغالطة والتحريف معناها في موضع آخر من هذا التعليق فانظره . ومنها: حديث: (اعملوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ)[1] ، وقد أوضحت أيضًا في أن الذي خُلقنا له هو معرفة الله وعبادته بنص القرآن ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦) هكذا قال سبحانه، حاصرًا قاصرًا لخلق كل مكلف على عبادته، كما قال سبحانه: ﴿ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ﴾ (البقرة: ١٨٥) وأي عسر أشد من الكفر ومآله .

(١) أخرجه مسلم (٤/٢٠٤٠ برقم ٧)، والبخاري (٤/١٨٩٠ رقم ٤٦٦١، ٤٦٦٢، ٤٦٦٣)، وأبو داوود (٥/٣٨ برقم ٩٠٧٤)، وغيرهم .

كما أخبرنا أنه يريد بنا اليسر، وأن يخفف عنا، وأنه ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي وأنه لا يأمر بالفحشاء، وكيف يقوم التكليف على من يستحيل عليه القيام به، معاذ الله، وحاش لله، فكأنه قال كل ميسر لعبادة الله .

هذا وقد أشكل على كثير التساؤلُ: لماذا لم يتفضل الله على الكافر بإماتته قبل أن يستوجب النار؟ فقل لمن حار في الجواب:- هذا تَحَكُّمٌ فيما لله سبحانه وتعالى الحق أن يفعله بل هذا أوقح تحكم وأسفهه، وإنما كان يرد لو أن الله خلقه وأجبره على الكفر وسلوك طريق النار، فأما وقد مَكَّنَهُ من الإفلات منهما، وأنعم عليه بالقدرة والتمكين والإرادة والاختيار على فعل الطاعة وترك المعصية، وأَكْثَرَ من إنذاره وتحذيره بالعقل والرسل والكتب والعبر والحياء والموت والمرض، وأقام بينه وبين المعصية حواجز ومعوقات، كالخوف من علم الغير، ومن عقاب السلطات للجناة، وغيرها فإن بعض هذا كاف بمفرده لانتفاع الكافر، فكيف بها كلها، وبعض هذا كاف بمفرده لتحقيق صفة العدل لله سبحانه .

وإنما فعل هذا كله جل جلاله لتحقيق صفة الفضل والرحمة والكرم والحلم ونحوها، فحققها بذلك أفضل تحقيق، وليس للعبد بعد هذا كله أن يقترح تفضلاً من الله على الكافر بعد أن وفر له ما

يُقْدِرُهُ على النجاة والخلوص ببعضه[1] فكيف بجميعه ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىۡءٍ قَدِيرٌ ﴾ (آل عمران: ١٦٥) ويقول سبحانه – حاكيًا لقول صالح عليه السلام لقومه: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَـٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَـٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾ (الأعراف: ٧٩) ورغم أنَّ ابن القيم وشيخه[2]، وكثيرًا من العلماء – اعتبروا المجبرة الإسلاميين مرتدين – إلا أنهم لم يخلصوا من شباكهم تمامًا وإن ظنوا أنهم قد خلصوا.

---

(١) أي ببعض هذه الأسباب والتفضلات المذكورة .

(٢) ابن القيم هو محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي الحنبلي، تتلمذ على ابن تيمية وكان كثيرا ما ينتصر لأقواله ولا يخرج عن مذهبه، توفي ١٥٧هـ . الأعلام (٦/٦٥) . أما شيخه فهو أحمد عبد الحليم الحراني الدمشقي الحنبلي له كثير من المؤلفات، توفي ٨٢٧هـ، (الأعلام ١/٤٤١)، عيب عليه وعلى تلميذه ابن القيم شيئان: إنكارهما للمجاز في القرآن، وأقوالهما التي تثبت التجسيم لله تعالى عن ذلك كما ذكر ذلك الشيخ محمد الغزالي في كتابه: كيف تتعامل مع القرآن الكريم؟ قلت: وتحامله على أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم.

وخلاصة القول: لا شبهة لإبليس -ومن غرهم في هذا- إلا تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وعناد المستكبرين الذين يقولون: ﴿ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْ ﴾ (المائدة: ٤١) ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ (النمل:١٤).

إذاً فليس لقائل أن يقول: لماذا أبقى الله الكافر حتى استوجب النار و لم يتفضل عليه بموته صغيرًا فيصير مع الأطفال إلى الجنة لأن السؤال بمعنى لماذا فعل الله ما من حقه وشأنه أن يفعله؟.

ولهذا قلتُ آنفا: إنه أسفه تحكم؛ لأن إيجاد الكافر وإبقاءه ما شاء من العمر حق لله، فأما ما هو حق للعبد أوجبه الله على نفسه، فقد أوفاه الله له مضاعفا، وزوده بما يستطع به الخلاص من النار فإذا أصرَّ على غيه، وتجاهل أوامر ربه فقد أتى من جهة نفسه، "وعلى نفسها جنت براقش" رغم تفضل الله عليه بهدايته وإقداره وإقالته وإمهاله وقبول متابه، وغير ذلك من التفضلات التي كان يستطيع النجاة ببعضها، فما بالك بها مجتمعه.

ومن شُبَهِ إبليس – التي وجد من يصغون إليها – أن علم الله سابق، فلا مجال للعبد من تطبيقه، فقل له :إن سبق العلم لا يقتضي

الإجبار ولا يقتضي أن يكون سائقا؛ لأجل مطابقة العمل للعلم؛ لأنه إذن لا يسمى علمًا بل عملاً فالإجبار عمل لا علم، وهو من آثار القدرة، لا من آثار العلم، فلكل صفة في الشاهد والغائب آثار مقصورة عليها، لا تشاركها فيها الصفات الأخرى، مثلا: الله خلق بقدرته، لا بكرمه ولا بصفته، غفور رحيم، وأنت تعمل بقدرتك، لا بكونك مدركا، وتسمع بحاسة السمع التي في صماخك لا بحاسة اللمس أو البصر، وهكذا، وقد خذل الشيطان في وسوسته بهذه الشبهة لوهنها البادي؛ لكنه لما عرف أن الأغبياء كثير- لم يتردد في بثها؛ لمعرفته أنه لا ينقذهم منها إلا الإخلاص، وأهل الإخلاص قليل، كما قال فيما حكى الله عنه: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ (ص: ٨٢: ٨٣) وكما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ (سبأ: ١٣).

إذا أدرك إبليس أنها وأمثالها ستلقى رواجًا بين الأكثرين وإن كانت تافهة، وإنما عنيت بأنه خذل عندما يلقيها بين المخلصين ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا

هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٠١) الذين يجعل الله لهم بتقواهم فرقانًا يفرقون به بين الحق والباطل، وبين الشبه والدليل[1].

وقد تسأل ما وجه سوق هذا الكلام أثناء الإيضاح لمعنى القضاء والقدر؟ فاعلم أنه هو، فإن تحريف المجبرة لمعناه إحدى الكبر والخدع التي خدع بها الشيطان المجبرة واحتنك الواقعين بها في إساره، وما أكثر الواقعين بها في إساره، كما استطاع أن يكرس جهودهم للمسارعة إلى الأذهان الخالية والأنفس الخاوية، فيغرسون فيها الجبر عن طريق تفسير القضاء والقدر، وتحريفهم لتأويله بالباطل، وكان كالمنطلق لسوء تأويلهم لآيات التنزيل بأسوأ التأويل، وكان حاملاً لهم لقبول الموضوعات التي وضعت لترويج نحلتهم الباطلة، حتى أنهم ليكادون يحصرون معنى القضاء والقدر في سبق الكتاب بما الناس عالمون سبقا، يستوجب جبرهم على ذلك، وسلب إرادتهم واختيارهم فيما يأتون وما يذرون.

فأما إثبات العلم الأزلي والحكمة الربانية، ونفي النقائص عنه، ونفي الإلحاد في صفاته، وإثبات وجوده وأنه رب الكائنات ومدبرها ؛ فكأنها أمور لا تعني المكلف إلا ثانيًا، وبالعرض لا غير،

---

(١) يشير إلى قوله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ......﴾الأنفال: ٢٩.

كما أن التشكيك في حكمة الله وشمولها لكل ما جل ودق مما راج في كتبهم، والذين يتلكأون عن التصريح بذلك، أو يتحاشون الظهور به – يقولون: لحكمة لا نعلمها، وهو قول تعرفه ألسنتهم، وتنكره قلوبهم، إذ أنهم يقولون: خلق الله الكافر على بنية لا تقبل الإيمان، فالإيمان منه مستحيل، وأراد بخلقه أن يكون كافرا، وأن يعذبه بعد ذلك، ويتهربون مما تلزمهم به النصوص القرآنية والعقول – حتى غير السليمة – يتهربون بأن هذا لا يسمى ظلمًا ؛ لأنه مالك، فالألم والعذاب الذي يعانيه أهل النار ليس ظلما؛ لأن المجبرة لا يسمونه ظلما، ولا يكون ظلما، ولا أَلَمًا إلا إذا سماه المجبرة ظلمًا، كأننا في حيال البحث عن الأسماء لا عن الماهية، وكأننا إذا حشونا فم العطشان بالملء والتراب الحامي كأننا – بذلك – قد صيرناه ريَّانًا إذا سمينا التراب ماء، وكأن المعذَّب إذا سمى المجبرُ عذابه نعيمًا يحس به نعيمًا، سبحان الله وتعالى عما يصفون.

نعم دمت بين النعم وعلى رأسها الهداية إلى الصراط المستقيم والنجاةُ من الضلال البهيم –إذا فهمت فهمًا تامًا– كل ما ذكرته لك سابقًا فاعلم أنَّ القضاء والقدر هو العلم الأزلي بما الله موجده، وباريه على النحو الذي سبق علمه به في الفراغ الذي أراد سده بمخلوقاته لا تتعداه، وعلى الكيفيات وبالكميات، وعلى الصفات،

بالأجناس والأنواع، والأنواع التي أرادها سبحانه وعِلْمُهُ بحركات كل متحرك، وسكنات كل ساكن، وهيئات وأحجام وأعمار كل جامدٍ ونامٍ وحيٍ، وبأنواع الأحياء وأعدادها وأشكالها، وإن منها ملائكة معصومين وجنًّا وإنسًا مكلفين، وبما كل أحد صانع، وبمآل كل كائن ونهايته وبدايته، وذلك الخلق والإيجاد والإبداع كان من العدم المحض، الذي لا تملك العقول فهم الإيجاد منه[1] وكل مخلوق برأه الله متلبس بالحكمة لم يخرج عنها حقير ولا كبير، فإن شئت قلت: العلم ووقوع المعلوم هو القضاء والقدر، وإن شئت قلت: العلم السابق هو القضاء والقدر هو وقوعه .

والأول أظهر كما يفيد لفظ الحديث: (خيره وشره) ولم يقل: خيرهما وشرهما.

ثم اعلم أن إقدار الله لنا على فعل الطاعة والمعصية وغيرهما كالمباح- لا يستلزم إرادته لوقوع المعاصي- فإنما أقدرنا عليها ليصح التكليف بتركها، وإلا فلا تكليف، إذ ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا ﴾ (البقرة: ٢٨٦) ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ (الطلاق:٧).

---

(١) أي من العدم.

فإن حاول الشيطان أن يخدعك بأنه إذا لم يرد الله المعاصي فقد وقع في ملكه ما لا يريده، فاستعذ بالله من وسوسته، وقل له: إنه لم يقع إلا ما يريده الله، وهو إقدار العبد على الطاعة والمعصية، فالواقع إذا ما أراده الله، وإقدارنا على المعصية لا يقتضي إرادته لها، كلا فصلاحية القدرة للضدين ضروري لحمل التكليف، فكانت لذلك كذلك متقدمة على الفعل غير مقارنة له ولا موجبة[1] .

والإقدار على المعصية اقتضته حكمة التكليف، وهذه اقتضتها حكمة جعل الدنيا بين يدي الآخرة، ووقوع المعصية في ملكوت الله لا يدل على رضاه، ولا على مشئيته لها، وحسبك ما أسلفنا من الآيات الناصة على ذلك مثل: ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ (الزمر:٧) ولا يغض وقوعها في قدرته، فذلك بإقداره، ولا في حكمته؛ لأن الحكمة اقتضت إقدارنا على المعصية، وحسبك أيضًا التعليق على قولي في القدسية .

فوجودنا وفناؤنا فمعادنا ... فخلودنا في غاية الإتقان

(١) أي وجود القدرة على المجبرة موجبة للفعل فمتى وجدت فلا مناص من الفعل المقدور عليه.

وإنما يغض ذلك في قدرة الله، لو أنه تعالى لا يقدر على منع العاصي منها، فأما وهو قادر كما قال: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ﴾ (يونس:٩٩) لا غضاضة ولا غض ولا قدح، بل من الحكمة في الإقدار والتمكين أن تظهر آثار صفاته مثل: غفور عفو رحيمٌ توابٌ كريمٌ ، فإنما تظهر بوجود من يذنب بمؤآثرته العاجل، وإيثاره لهواه ودنياه، فإذا تاب وغفر الله له تحققت صفاته الدالة على العفو والمغفرة والحلم ونحوها بالغفران ونحوه من الحلم والتسامح، وإلا لم تخرج هذه الصفات من الكمون إلى الظهور، وإنما خرجت بأفعالنا نحن فلا يقدح ذلك في صفته تعالى حكيم، فاللهو واللعب والعبث منا لا منه تعالى، كما قال سبحانه وتعالى:﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ (هود: ٥٦) ، ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾ (المؤمنون:١١٥)، ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ (الأنعام:١١٥)، ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ (الملك:٤) وغيرها كثيرًا مثل:﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (الدخان:٣٨:٣٩).

والسماء مفردة في سورة الأنبياء، وفي الدخان بصيغة الجمع وبعدها في الأنبياء: ﴿ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾ (الأنبياء:١٧) فنفي عنه في مثل هذه الآية: اللهو واللعب والعبث.

وإذا كانت هذه النقائص والتي هي من شأننا لا تجوز على المنزه عنها، فقد جعل الله لنا ملاذاً من وخيم عواقبها مغفرته المشروطة بالتوبة في مثل: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الزمر:٥٣).

وفي مثل: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ (طه:٨٢)؛ فظهور الفساد والذنوب والمتاب من محض أعمالنا، وقبول التوب والغفران من صفات الله جل جلاله .

وقد مثلت لك – في غير هذا الموضع – بأنك إذا أعطيت رجلاً سلاحًا ليدافع به عنك، فإذا به يقاتلك به، فلو قال لك قائل – في هذا الحال:– أنت أردت أن يقاتلك به، واستدل على إرادتك ذلك بأن السلاح صالح لأن يقاتلك به، فما دمت قد أعطيته سلاحًا

صالحًا لأن يقاتلك به؛ فقد أردت ذلك، فلو قال لك هذا قائل – لعلمت أنه كاذب – أو على الأقل سيء الفهم جهول، كما ضربت مثلاً – في سياق آخر– بأن علمنا بيوم القيامة، أو طلوع الشمس غدًا من المشرق، إذ لم تحضر القيامة ليس له تأثير في مجيء القيامة، ولا طلوع الشمس، وأن ذلك كعزيمتنا، لأن نمشي لا تأثير له في المشي، فلا علمك ولا ظنك ولا قصدك له تأثير، إنما التأثير لقدرتك الموجودة في قدميك، وليس لأي صفة فيك أي تأثير في المشي سواها.

كما نبهت محذرًا من مغالطة إبليس ووسوسته حيال هذا بأن يقول: لا يقاس علم الله بعلمنا؛ لأن علمه واجب، وعلمنا جائز، فقلت: قل للشيطان: إنه قياس صحيح متكامل نبغي الفارق[1]، وما ذكرت– يا إبليس– هو وصف غير مؤثر في صحته، ولا موجب لإبطاله .

وكما نبهت على وهن زعمهم بأن إثبات قدراتنا يستلزم وجود شريك لله في الخلق، ويزيد الوضوح في وهنه بأنه يلزمهم من إثباتهم العلم لنا أننا شركاء لله في العلم، ومن إثبات الحياة لنا مشاركتنا الله في صفته بالحي، وهكذا مع العلم عندك أن هذا لا يعد مشاركة ولا

(١) وهو الوجوب في علم الله والجواز في علمنا.

مشابهة ولا مماثلة لا في القدرة ولا غيرها من الصفات، فتأمل إلى أي حد استغواهم واستغباهم إبليس، وإلى أي درك سحيق هوى بهم في الضلال البهيم، فإذا جمعتهم القيامة وإيانا قال لهم إبليس: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (إبراهيم:٢٢) ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ (القصص: ٦٦) ، فإذا أنت عرفت هذا عرفت أن القضاء والقدر خيره وشره هو قضآؤه بأنه سيخلق الخلائق ذواتا وأمكنة وأزمانًا وجهات بقدرته وطبق حكمته وطبق علمه بما سيكون علمًا محيط بكل صغير وكبير، ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (سبأ:٣).

ومن ذلك الحياة الدنيا الفانية، والحياة العليآء الباقية، وما سيفيض في الدارين عليهما وعلى أهلهما من نعمه وكرمه وإتقانه

وعدله وفضله وحلمه وقوته، وغيرها الفياضة والمقتضاة من كونه محسنًا وكريمًا وحكيمًا عليمًا وعدلاً وذا الفضل العظيم وحليمًا وقويًّا عزيزًا؛ فكل صفة تركت في مخلوقات الله ما يدل عليها دلالة قاطعة :

تَأَمَّلْ سُطُورَ الكَآئِنَاتِ فَإِنَّهَا ... مِنَ المَلاَءِ الأعْلَى إِلَيْكَ رَسَآئِلُ
وَقَدْ خُطَّ فِيْهَا لَو تَأَمَّلْتَ خَطَّهَا ... أَلاَ كُلُّ شَيءٍ مَا خَلا اللهَ بَاطِلُ
تُشِيْرُ بِإِثْبَاتِ الصِّفَاتِ لِرَبِّهَا ... فَصَامِتُهَا يَهْدِي وَمَنْ هُوَ قَائِلُ

وخلق المكلفين من جملة المعلومات، وجميع أعمالهم من جملة المعلومات، خيرها وشرها لم يطع مُكْرِهًا ولا مُكْرَهًا، ولم يعص مغلوبا، وإنما أقدرهم على الضدين ليتم التكليف بالقدرة والتمكين، ولم يرد بذلك منا إلا عمل الطاعة ليستحقوا بها الخلود في دار الخلود، ولم يرد ولم يرض ولم يحب ولم يشأ أن يعصوه، فإنما أقدرهم ليتم الابتلاء بتمكينهم منها، وإقدارهم عليها فيثيبهم على اجتنابها، وأنه ليس الواقع، كما قالت الدهرية والطبائعية[1] الكافرون بالله وقضائه وقدره، ولا كما زعمت نفاة العلم والحكمة والعلِّيَّة

---

(١) قالت الدهرية: إن الدهر هو المتصرف،وقالت الطبائعية: إن التصرف من الطبيعة قال في المنجد والطبع: الدهري، الملحد القائل: إن العلم موجود أزلا وأبدا لا صانع له. ص ٢٥٥. والطبيعي من ينسب كل شيء إلى الطبيعة .ص٤٧٥.

ولا المرتابون القائلون: بأن الأمر أنف لا يعلم الله بالحوادث إلا عند حدوثها، لما شبه لهم وظنوا جهلاً أن في المخلوقات ما لا حكمة في إيجاده .

لهذا كان الإيمان بقضاء الله وقدره جزءاً من الإيمان بالله، يوجد بوجوده، ويعدم بعدمه .

هذا والهداية التي أوجبها الله على نفسه لخلقه في مثل قوله: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ (الليل: ١٢) قد منحها لكل مؤمن وكافر على سواء، كما قال سبحانه: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ (فصلت: ١٧) أي بَيَّنَّا لهم ما يرضي الله وما يسخطه، فآثروا هواهم فهلكوا، وقال سبحانه: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ (البلد: ١٠) أي بَيَّنَّا له طريق الخير وطريق الشر، :﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ (محمد: ١٦) فالزيادة إذن خاصة بمن اهتدى وحمل نفسه على الطاعة فألفها واعتادها، حتى حببت إليه وشق به التقصير أو الإخلال بها.

كما أن الضلال الذي خص به العاصي من عمله بما ساعد هواه، واقترف من المعصية، حتى حُبِّبَتْ إليه وشَقَّ به تَرْكها، وتأمل مثل قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ ﴾

(البقرة: ٨٨) ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة:٨٩) ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ (البقرة: ٢٦)
ومن هاتين الآيتين الكريمتين تعرف أن الهداية شملت المؤمن والكافر، وأنها لا تستوجب القصر على الطاعة، وإلا لما هلكت ثمود .

وأما قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٌ ﴾ (التغابن:٢) فهي كقوله تعالى: ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ (هود: ١٠٥) تمامًا يبينها ما قبلها:﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأَخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٌ مَّجۡمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٌ مَّشۡهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعۡدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ ۚ فَمِنۡهُمۡ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ (هود: ١٠٤-١٠٥) أي إذا جاء يوم الحساب انكشف أن الناس بأعمالهم الطالحة والصالحة صار فريق منهم شقيًّا في النار بعمله، وفريق سعيدًا بعمله .

ألا ترى إلى قوله ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ﴾ فإنه الظرف والوقت الذي يظهر فيه الشقاء، ويحكم به لصاحبه، والذي يظهر فيه ويحكم فيه بالسعادة لمن آلوا بأعمالهم إليها، وليست الشقاوة في الآية ولا السعادة مذكورة في وقت قبل يوم الحساب . فتأمل .

ولكن إبليس بذل جهدًا كبيرًا لتحريف المعنى، حتى وجد من تجاوب معه، ومن حرف المعنى لحديث إن كان صحيحا، أو زَوَّرَ الحديث الذي يكمل به التضليل والله أعلم .

ومما يزيدك يقينًا أن الهداية شاملة لكل مؤمن وكافر، وأن المراد بالهداية التي يُخَصُّ بها المؤمنون هي ما يكسبونه بحمل أنفسهم على فعل الطاعة، واجتناب المعصية. قوله تعالى: ﴿ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ (الأعراف: ١٥٦) إلى آخر الآيات، وقوله: ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴾ (الليل: ٥-١٠).

ففي الآية الأولى كتب الرحمة للمتقين المتصفين بما في الآيات بعدها، وبعمل تلك الطاعات التي كان عملهم لها سببًا في كتابة الرحمة، وفي التي بعدها أفاد أن تيسيره اليسرى كان بما قدمه المستحقون لها من الأعمال المرضية، التي منها بذل المال في سبيل الله، وتقوى الله والإيمان بالحسنى، كما ذكر في التي تليها أن التيسير للعسرى كان بسبب ما قدموه من البخل والاستغناء والتكذيب

بالحسنى، وهذا التيسير للعسرى يفسره قوله تعالى: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ .أي نتركهم، وتأمل في الآية هذه بكمالها: ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (الأعراف:١٨٦) وقوله تعالى: ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴾ (البقرة:١٧) أعني أن الإضلال والتيسير للعسرى هو ترك العاصي وشأنه، فهو أمر سلبي لا إيجابي. وبهذا قال ابن القيم وشيخه، وعلله بأن الله لا يفعل القبيح، وهذا هو الحق المبين. أما الهداية فعمل إيجابي لكنه كما سبق لا يقتضي الإلجاء والقسر، كما أن ترك العبد العاصي يَعْمِه في غيِّه لا يقتضي قسره على الشقاء، فلا يزال قادرًا على الطاعة حتى الممات، وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (يونس: ١٠٠) فمعنى الجعل: هو الترك، ومثلها: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا ﴾ (يس:٩) إلخ، المعنى واحد، وكذلك: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ (البقرة:٧) إلخ، لا خلاف في المعنى، ولكن في قوالبه من الحقائق والمجازات والاستعارة المتعددة .

ومن فرسان البيان المجلين في مضاميره الزمخشري[١] رحمه الله ومن أعذب مواقعه، وأنفس مواضعه، كلامه على قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ (البقرة:٧) كما أنَّ التَّكَلُّفَ في الرَّدِّ عليه من منير[٢] واضح، وقد تفاصح ليجعل من بيانه سحرًا يؤثر به على نفسية القارئ، وتظاهر بالثقة المتناهية محاولاً أن يقنع القارئ بأن الله هو الخالق للقبائح، والفاطر للخبائث، والملجئ للعبد الضعيف العاجز لارتكاب ما نهاه عنه، والآمر بما لا طاقة للعبد به، والمعذب بدون استحقاق من لا حول له ولا قوة، ولا إرادة ولا اختيار ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ (الحج:٤٦).

فمن هذا التضليل زعمه أن الظلم إنما هو التصرف في ملك الغير، وأما تعذيب الله لأهل النار بدون استحقاق؛ فهو التصرف في

---

(١) هو محمود بن عمر الخوارزمي، جار الله الزمخشري، من فرسان اللغة وأئمة العلم والدين والأدب ولد في زمخشر وسافر إىي مكة ومكث في البيت مجاورا له فلقب بجار الله، له كثير من المؤلفات أشهرها الكشاف وأساس البلاغة وغيرهما، توفي ٨٣٥هـ كان على مذهب المعتزلة، الأعلام (١٧٨/٧).

(٢) هو أحمد المنير الإسكندري، له تعليقات على تفسير الزمخشري "الكشاف" .

ملكه فليس ظلما، فسألت أحمد على هامش كلامه هناك قائلا: في الحديث القدسي: (إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا)[1]. فضمير مفعول "جعلت" يعود إلى الظلم مفعول "حرمت"، فكأنه قال :جعلت مثل أو نفس ما حرمته عليكم محرمًا على نفسي وكأنه قال: إني حرمت على نفسي ما ترونه قبيحًا وظلمًا كما حرمته بينكم، والمحرم علينا هو التعدي بدون استحقاق، حتى ولو اعتديت على عبدك كنت ظالما، بل لو اعتديت على نفسك بالقتل لكنت ظالمًا لنفسك مُعَذَّبًا أبدا، فإذا لم يكن ما حرمه الله على نفسه هو عين ما حرمه علينا فما هو إذن يا أحمد ؟ ثم كيف يحرم على نفسه الظلم وهو تصرف في ملكه ؟ أليس هذا كافيًا لرجوع مثلك إلى الصواب، ثم من هم الذين حرم على نفسه أن يظلمهم، أهم من خليقته فيأتي السؤال الآنف؟ أم ترى أن لهم خالقًا غير الله فحرم على نفسه ظلمهم؛ لأنه تصرف في ملك الغير، سبحان الله يا موافقي أحمد، فإن قلتم –الذي حرمه على نفسه: هو ظلمه لنفسه، قلنا لقد أضحكتم بعد استعبار؟ فإن

(١) أخرجه مسلم (٤/١٩٩٤م – رقم ٥٥/٧٧٥م) في حديث طويل، وابن حنبل في مسنده (٨/٦٩ رقم ٧٧٤١٢ ، والبيهقي في سننه (٦/٣٩) عن أبي ذر رضي الله عنه واللفظ لمسلم .

قلتم: المحرم إطلاق لفظ الظلم عليه لا مدلوله، قلنا: لقد أبحتم بهذا تظالمنا، وأن يجرع بعضنا بعضًا القهر والغيظ والخوف والقتل، وكل أنواع الشر والفساد، إذا سمينا ذلك عدلا، وأن نزعم أن المعذب في نعيم بتعذيبه، وإذا ما تواضعنا على تسمية اللهب ماء عذبًا فإنا متى ألقينا فيه محمومًا ستبرد حُمَّاه أو عطشانًا سَيُرْوى، سبحان الله، هل أسخف من هذا إلا ذاك وهل تقدر أن تشك أدق سلك في ثقب أصغر إبرة في حالك الظلام، إذا نحن سمينا الظلام الدامس نهارًا مشمسًا ؟ كلا إن النظر والقصد والبحث تنصب إلى المعاني والمدلولات والأحداث لا إلى الألفاظ المعبرات عنها، فإن أبيتم قلنا:

يَأبى الْفَتَى إلاَّ اتِّبَاعَ الْهَوَى   وَمَنْهَجُ الْحَقِّ لَهُ وَاضِحُ

﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ (يونس: ٣٢)

وكما قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ (هود: ٢٨).

وقلنا –للقارئ –: إذا لم تعط النقاش للمسألة حقه من الإقبال والتأمل حتى لا ترتاب فقد احتملت إثمًا عظيمًا ونعيذكم ونعوذ بالله أن يصدق علينا أو عليكم قول الحق سبحانه: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ

ءَايَـٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ﴾ (الأعراف:١٤٦) قال الشيخ العلامة نعمان بن قايد بن راجح[(١)] أبقاه الله، وزاده علما، ونفع به القاعدة الصحيحة فيما يتعلق بأفعال العباد، وإحاطة العلم الإلهي بها أن علم الله سابق لا سائق فلا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء وكيف يعزب علم الخليقة عن خلاقها وقد أوجدها ورباها ونماها، وأدخل الزيادة في بني الحي والنبات ذرة ذرة بنسب محدودة مقدرة، وخلق كل شيء فقدره تقديرا، ولكن العلم صفة انكشاف لا تقتضي الإلزام ولا القهر، ولكنه متعلق بالأمور على ما هي عليه، وكون ما في العلم يقع لا محالة إنما جاء من حيث هو الواقع، والواقع لا يتبدل وإلا كان العلم جهلا، والواقع غير واقع وهو

---

(١) عالم محقق من بعدان، كان مع الوالد العلامة محمد المنصور حفظه الله بمجلس الشعب، درس في ذمار وفي صنعاء ومن مشائخه بصنعاء علي فضة في الكشاف، أفاد ذلك الوالد المؤلف

محال، وأضرب لذلك مثلا، ولله المثل الأعلى فإن الأمثال في مثل هذا المقام تغني عن إطالة الكلام :

لي صديقان عاشرتهما، وتعاملت معهما طيلة الماضي، حتى خَبرْتُهُمَا خِبْرَةً كاملة: **أحدهما**– مؤمن تَقِيٌّ وَفِيّ في الخلاء والملاء، والسر والعلانية .

والثاني: خائن يجيد صناعة الحيل بدقة متناهية، لا يكاد الناس يعرفونها، ويجيد أيضًا صنع الظاهر اللماع بمهارة دقيقة، أنا أريد أن أعاقبه على خيانته، غير أن الناس سيستنكرون معاقبته؛ لجهلهم بالحقيقة، فاتخذت طريقًا حكيمة صورية تظهره للناس على حقيقته وتفضحه بالخيانة بصورة قاطعة أمام الناس أجمعين ؛ فدعوت ثلاثة من علماء المسلمين وعدولهم يشهدون، وتفاهمت معهم بصورة خاصة، أني أمتحن صدق الصديقين المذكورين من عدمه، حتى يظهر بصورة قاطعة صدق المؤمن، وخيانة الخائن، وأبلغتهم أني أعرف من الآن أن فلان وَفِيّ تقي، وأن فلانًا خائن شقي، فأنت تراني قد أخبرت الشهود بعلمي مسبقًا لما عندي من خبرة كاملة ومعاشرة، قد عرف فيها العجز والمجبر.

وقلت للشهود: أرجو أن تبقوا هنا لتنظروا بأعينكم من سطح البيت ما سأفعل أنا والصديقان في باب البيت بحيث تشاهدوننا

بوضوح، وتسمعون كل ما نقوله بصورة لا يعرفها الصديقان ؛ لأني أريد أن يطمئنا إلى أنه لا شاهد بيني وبينهما سوى الله سبحانه، فقلت للصديقين: أنا سأعزم غدًا إن شاء الله متطوعًا للجهاد، وأنتما صديقاي اللذان أثق بهما وأسلمكما مقاليد أموري الخاصة والعامة، حتى أرجع إن شاء الله، وقلت للصديق المؤمن: هذا مفتاح دكاني للتجارة، اتجر ببضاعتي الموجودة، واصرف حاجة أهل بيتي، واشرف على أمور الحراثة، فقال: مرحبًا والله المعين، فقلت له :إذن انصرف، أما هذا فثمة كلام خاص بيني وبينه، فلما انصرف قلت للصديق الخائن، وهو لا يعلم شاهدًا بيني وبينه سوى الله عز وجل -: هذه نقودي وعددها له عدا، ألف دينار ذهبا، وألف درهم فضة، احفظها عندك أمانة حتى أعود فتردهما دون أن يعلم أحد، وإن قضى الله في أمره بالشهادة، فأرجو أن تسلمها لأولادي فقال: مرحبا، وأخذ النقود وهو لا يفطن أن الشهود يرياني معه، ويشاهدان كل ما جرى بيني وبينه، ثم عزمت في اليوم الثاني، وقد أخبرت أيضًا أناسًا آخرين من خواص الناس بالإضافة إلى الشهود أن فلانًا سيكون وَفِيًّا وأن فلانًا سيكون خائنا- وسافرت، فلما وصلت مكة -حرسها الله - اعتمرت، ثم بقيت هناك، فلما مضت فترة طلبت إلى صديق لي ثمة وأبلغته عن غرضي أن اتصل برئيس

قريتنا، فهو رجل خير، وأبلغه أنه وصل خبر من مكان الجهاد أن فلانًا رحمه الله قتل شهيدًا في سبيل الله، وقال: إن عند صديقيه فلانًا وفلانًا الحقيقة فيما خلفه لأولاده، فسأل الناس الصديقين .

فقال الوفي: نعم عندي الدكان والبضاعة، وقد صرفت لأولاده كذا، وهذا ما بقي من عين أو قيمة .

وأما الآخر فقال له الناس: هل عندك شيء ؟ فقال: كم كنت أحب أنه وضع عندي شيئًا لأعطيه لأولاده لكن مع الأسف لم يكن عندي شيء، ولا وضع عندي شيئا، وبعد أن اتضح لعامة الناس موقف الصديقين بكل جلاء، عدت إلى بيتي، وقلت – متجوزا: كنا عزمنا للجهاد وكتب الله السلامة، وسألت الناس عن موقف الصديقين، فقالوا: فلان قال: عنده لك الدكان والتجارة وما باع صرف منه لأولادك كذا وسلم ما بقي، وأما فلان فبكى عندما سمع الخبر، وقال: لم يكن عنده لك شيء .

هذا مجرد مثل – ولله المثل الأعلى – يكشف لك الحقيقة وهي أنه لا تأثير لعلمي الذي أعلنت عنه من قبل في سوق المؤمن، وحمله على الوفاء للصداقة، ورعاية الأمانة، وكذلك لا تأثير له في سوق الخائن، وحمله على الخيانة، وإنما هو سوء اختياره، وفساد ضميره ؛ فقد قلت للناس: أنا أخبرتكم عن خبرتي بالرجلين مسبقا، وأنا الآن

أكشف لكم صدق قولي فيهما، فَهَلِمُّوا بفـلان وبفـلان، المشـاهدين لكل ما جرى بيني وبينه قبيل عزمي، وبأنه جحد الأمانة، ركونًا إلى أني قـد استشـهدت، فقامـت عليـه الشـهادة العادلـة المثبتـة لخيانتـه، وكـان علمـي مجـرد خـبر لا علاقـة لـه بسـوقه أو حملـه علـى الخيانـة أصلا. انتهى كلامه أبقاه الله .

فإذا أمعنت النظر في هذا التمثيل، فقد أوضح فيه الشيخ الفهامة إيضاحًا يستوي في فهمه النبيه والغبي، والبليد والذكي ؛ فقـارن بـين وضوحه المتواضع، وبين غموض الرد الآنف الذكر على الكشـاف، فقد حاول بما حشد من شبه مزخرفة أن يقنعك بـأن النـهار الوضـاء ليـل دامـس، وأن الليـل المعتكـر في ظلامـه نهـار وضـاء، في عبـارات تشتم منها ريح الدعوى، والذهاب بنفسها، وجمل مختالة وما أجملـها لو كانت في سبيل الحق إذن لكانت كمشية أبي دجانة[1] لا يبغضـها الله في مثل موقفه، ولكن :

---

(١) هو سماك بن خرشة الخزرجي الأنصاري، صحابي، كان شجاعا بطلا، وكانت له مشية فيها تبختر حين تدق طبول الحرب، رآه النبي ﷺ وهو يمشي تلك المشية في إحدى المعارك، فقال:(إنها مشية يبغضها الله إلا في هذا المكان)، توفي سنة ١١هـ، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر الترجمة رقم ٣٧١، والأعلام (١٣٩/٣).

حكوا باطلا وانتضوا صارما وقالوا صدقنا فقلتم :نعم

أفيقوا فإن أحاديثهم ضعاف القواعد والمدغم

زخارف ما ثبتت في العقول عمى عليكم بهن المعم

فتأمل بإمعان وتدبر بإنصاف:

فلم يتناول درة الحق غائص من الناس إلا بالروية والفكر

وليس الإخلاص في نظري الانتصار لما أعتقده حقا، وإلا كان كل المختلفين على الحق، ولكنه الإخلاص في البحث عن الحق لذاته، فمن صدق الله في ذلك هداه إليه حتما، بدليل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ (الليل:١٢) ﴿ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ (الأنفال:٢٩) ولهذا وجب أن لا ننظر إلى من قال، ولكن إلى ما قال، والرجال يعرفون بالحق لا أن الحق يعرف بالرجال، كما هو الحال عند الأكثر؛ فإنهم يقلدون من يعظمونه، ولو كان على خطأ فيعتقدون بصحة ما قال، فإذا قيل لهم في ذلك، قالوا: قد قال به فلان، ولو كانوا مخلصين في طلب الحق لأمعنوا النظر في القول لا في قائله .

مثلا: أمليت في مجلس بعض شيوخنا المحققين[1] تفسير الآية ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ (البقرة: ٧) فوافق فهمه فهم المفسر، ثم أمليت الحاشية فبدا عليه شبه الحيرة والشك، عند درج نقاط منها، قول المحشي: الأولى مخالفة الزمخشري دليل العقل على وحدانية الله، ومقتضاه أنه لا حادث إلا بقدرة الله، فقال الشيخ – أبقاه الله –: هل هذا حق ؟ ومثل أحمد لا يتهاون بعلمه، فقلت: دعوا أحمد ومحمودًا ونقف عند الألفاظ فهي التي تحمل الحق أو الباطل، ثم قلت: هل دعواه صحيحه، أن التوحيد يقتضي التسليم بالجبر؟ فقال: لا، فقلت: فإن مؤدى قوله هكذا، العقل يقتضي أو يحكم بوحدانية الله، والتوحيد يستلزم القول بالجبر، أصحيح هذا التأليف ؟ قال: لا، فقلت: ثانيًا – هل العقل السليم يفهم جواز الفعل القبيح، والظلم من الله، وقد أدرك العقل أن الله غني عن فعله، وعليم باستغنائه، أم يفهم قبح ذلك ؟ فقال: بل يفهم قبح ذلك، فقلت :إذن فدعوى المحشي أن العقل معه باطلة.

---

(١) من المشائخ البارزين الذي درس عليهم الكشاف– القاضي يحيى محمد الإرياني والد القاضي عبد الرحمن الإرياني من أوله إلى آخره مع القاضي في مسجد الفليحي، والسيد أحمد بن علي الكحلاني في الجامع الكبير، والقاضي حسين محمد بن محسن حنش في جامع خمر وغيرهم .

وإنما أراد بدعواه أن يبهر القارئ ويزلزل معتقده، ويهزمه من أول البحث، إذا كان من أهل العقول السليمة ويحمله على إعادة النظر، وشكه في فهمه الصحيح أن تعذيب من لا يستحق التعذيب ظلم، وفهمه الصحيح لقوله تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ (النساء:١٤٧) وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة:٢٦٨) ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ (الطلاق:٧) فنفى في الأولى أي فائدة، أو باعث يبعثه على فعل القبيح والظلم، وفي الأخريين نفي تكليف ما فيه مشقة، فضلاً عما لا طاقة به، وأن فهمه لقوله تعالى ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (ق:٢٩) غير صحيح، والمفاجأة بمثل تلك العبارات الدالة على ثقة القائل بصحة ما يقول – تؤثر أول وهلة؛ لكنها تنقشع كسحابة الصيف بسرعة .

ثم لفت نظر الشيخ – أبقاه الله – إلى أن التركيب للجمل غير سليم، فإن المحشي لم يكمل السطور حتى عذر الإمام بحسب معتقده، ظانًّا أنه يدينه، فقال: والامتناع من قبول الحق من جملة الحوادث – أي التي هي من فعل الله، وقد ساق هذا بمثابة حسن التعليل، دون أن يتنبه إلى أنه عكس تعليل أو سوء تعليل فكأنه بعد أن أنكر عليه قال: لا نكير عليه، وبعد أن خطاه قال: إنه ليس

مخطئًا ؛ لأنه من فعل الله لا من فعله . فتأمل . فأما كلام المفسر- رحمه الله – فإنه يصدق عليه الحديث القدسي: (ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ...الخ)[1] .

وإذا لاحظت في تأويل المجبرة للآيات المحكمات بحسب هواهم- رأيت التكليف والتعسف واضحًا وإذا لاحظت تأويل أهل العدل والتوحيد للآيات المتشابهات، وردها إلى المحكم – وجدها تآويل واضحة غير متكلفة، ومواكبة لما تفهمه العقول السليمة، والطباع المستقيمة .

فائدة:

ومن ذلك ما وجدته من خط وكلام الشيخ العلامة: نعمان ابن قايد بن راجح -أبقاه الله – كمثل لذلك ، فإليك هذه الكلمة الفاذة حول الإيمان وأركان الإسلام .

قال-أبقاه الله: أرجو أن تتأمل من أركان الإسلام ؛ وهو شهادة أن لا إله إلا الله ، وسترى أن الإسلام والإيمان معًا متعانقين تحت لا إله إلا الله ، لا يمكن أن ينفصل أحدهما ، عن الآخر غير أنه يجب أن تفهم الشهادة بكل أبعادها وآفاقها ، وذلك يتوقف أولاً

(١) رواه ابن حجر في فتح الباري (٤٢٦/١٠) .

على معرفة لفظ الشهادة ، وهي في لسان علماء الكلام: الإخبار عن الشيء المدرك ، إما بعين البصر: وهي هذه المقلة ، أو بعين البصيرة: وهي العلم القائم على الحجة والبرهان، المنزل عندك المعلوم دليله بمنزلة المشاهد المحسوس، حتى كأنك رآء ما استقر رأيك عليه.

والمراد هنا هو الثاني ، وهو الإدراك بعين البصيرة ، وهو واضح ضرورة في الكتاب المسطور ،أو الكون المنظور، قال تعالى:﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ (فصلت:٥٣) فأنت ترى هذا الكون كله مفعولاً ومنفعلاً دائمًا بفعل فاعل واحد ، هو الله عز وجل ، فأنت ترى ميتًا يموت ، ومولودًا يولد ، وسحابًا تمطر ، وأرضًا تنبت ، وهكذا على امتداد الدهر ، وتعاقب الأزمان ، وإذا ما اقتنعت أنت بالحق أنه الحق ؛ فلا بد أن تكون قد صعدت بعقلك إلى أعلى كمالاته ، فأصدرت بذلك حكمًا بلفظ الشهادة ، مواطئًا بها القلب اللسان أن لا إله إلا الله مخبرًا بها الغير ، مراغمًا كل من كفر بالله وجحد، أو ظن له شريكًا.

وأنت ترى أن الشهادة عند الحاكم هي إخباره بما رأت عينك، أو سمعت أذنك (على مثلها وإلا فدع)[1] ، وأشار – صلوات الله عليه – إلى الشمس. إن أول ما توحي به هذه الكلمة أنك كسرت بها عن عنقك كل الأغلال التي قد تكون طوقتك بها الخرافات ، أو الأوهام ، أو المنتحلين لأنفسهم حق الوساطة بين الله تعالى وبين خلقه ، أو جبابرة الملوك ، أو طواغيت الحكام ، وأصبحت ترى نفسك حُرًّا عزيزًا وإنسانًا مكرمًا بالنسبة للمخلوقات كلها في الأرض ، وعبدًا خاضعًا لله وحده ، ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ (البقرة:١٣٠) وملته هي التوحيد ؛ لأن الشرك داء وبيل يلوث الفطرة ، ويدنس العقل والشرف.

وإذا كنت بذلك قد تحرر ضميرك من جميع ما سبق ، فإن الشهادة أيضًا قد منحتك التحرر الكامل بأنه ليس إلا حكمه فلم يجعل لأحد أن يحكمك بجهله وهواه ، بل حرمت[2] أن تخضع لحكم

---

(١) روى البيهقي في سننه (١٠/١٥٦) عن ابن عباس قال ذكر عند رسول الله ﷺ الرجل يشهد بشهادة فقال: (أما أنت يا ابن عباس فلا تشهد إلا على أمر يضيء لك كضياء الشمس) وأومى رسول الله ﷺ إلى الشمس، ورواه ابن عدي في الكامل (٦/٢٠٨) .

(٢) أي الشهادة.

غير حكم الله ، قال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ (يوسف:٤).

وإذا كان مؤدى الشهادة أن لا معبود بحق في الوجود إلا الله؛ فإن تخصيصه بالحكم دون سواه هو تفسير: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (النحل:٣٦)قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل : ٣٦) والطاغوت: هو الشيطان، وحكم البشر للبشر ، ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ (البقرة:٢٥٦) إلى أن قال العلامة نعمان: ولا بد أن يُعْرَفَ أولا الشرك في الاعتقاد ، ثم بما يترتب عليه من أعمال العبادة.

ويمكن القول: بأنَّ الشرك اعتقاد أن لمخلوق ما قدرة غيبية فوق ما وَهَبَ الله الناس في نظام الأسباب يملك بها جلب الخير أو دفع الضر عن نفسه أو غيره باستثناء معجزات الأنبياء عليهم السلام – فهذا الاعتقاد وثني؛ إذ لا يملك التصرف في الكون بالخير والشر إلا الله وحده ، فالقدرة المطلقة النافذة في كل مقدور ليست إلا لله ، وسواء كان المخلوق الذي اعتُقِدت له قدرة أو تأثير ملكًا أو نبيًّا أو

وليًّا حيًّا ؟ كان أو ميتًا أو شمسًا أو قمرًا أو حجرًا ، فمن اعْتَقَدَّتَ له ذلك فقد أَلَّهْتَه فإن دَعَوْتَهُ فقد عبدته، وتعالى الله عما يشركون ، قال سبحانه: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٨٠) ﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَـٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ (غافر: ٦٦) ﴿لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (فصلت:٣٧) ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ (العنكبوت:٤١) ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ (الفرقان:٣).

والأدلة في هذا أكثر من أن تحصر: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ (الشورى:٩) وبالوعي الصحيح لهذه الآيات ورعاية هذه الحقائق – يكون الضمير قد تزكى وتنقى عن جميع الملابسات والشبه الهابطة ، التي تدنس الفطرة ، وتلوث الشرف

الإنساني ، ويكون قد أشرقت في نفسه دلائل التوحيد ، فاتجه إلى ما خلقه الله لأجله ، إلى عبادة الله وحده سامعًا قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦) قائلا: لبيك اللهم لبيك ، لبيك وسعديك ، والخير كله بيديك ، والشر ليس إليك ، قل الله أعبد مخلصًا له ديني ، جاعلاً نصب عينيه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ (الكهف:١١٠).

وبذلك يتجلى معنى الاختصاص في قوله سبحانه وتعالى:﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة:٤) فالعبادة هي التوجه القلبي إلى الله وحده بالخضوع والطاعة بفعل كل ما أمر به واجتناب كل ما نهى عنه ، والرجوع إليه بالتوبة عن أية معصية إيمانًا بأنه الحقيق بأن يطاع فلا يعصى ، والخليق بأقصى غاية الخضوع ، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ (البينة:٥) ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (غافر:١٤) فادعوا الله –أي اعبدوه، تطلق على الدعاء قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ (الفرقان:٧٧) – أي عبادتكم ،

وحديث الدعاء هو العبادة (الدعاء مخ العبادة) [(١)] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر:٦٠) والصلاة وهي أعظم مظهر من مظاهر العبادة وهي لغةً: الدعاء ، وفي الشرع: عبادة ذات أذكار وأركان، تحريمها التكبير وتحليلها التسليم ، ثم الإقبال على الله والتوجه إليه في كل عمل من أعمال الطاعات ، فعلاً وتركًا في المسجد ، أو المتجر ، أو المعمل ، أو الجربة، أو بصلة الأرحام، أو الإصلاح بين الناس، أو إماطة الأذى عن الطريق إلخ.

إن هو في غايته إلا دعاء لنيل مرضاة الله والنجاة من سخطه وعقابه وبناءً على هذا فما حقيقة الدعاء ؟ ولا يخفى أنه الشعور القلبي بالحاجة إلى المعبود عز شأنه وصدق التوجه إليه في طلب ما يرجى أو دفع ما يخشى إن في الدنيا وإن في الأخرى.

ولا شك أن مصدر هذا الشعور وهذا الدعاء هو الإيمان الثابت الجازم المطمئن ، فأركان هذا الدين متداخلة متعانقة ؛ فالإحسان الذي هو "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[(٢)]. إن

(١) رواه الترمذي رقم ٣٣٦٨، كتاب الدعوات، عن أنس ، وذكره المتقي الهندي في كنز العمال (٢/٦٢ رقم ١٢٢٤)

(٢) رواه مسلم في حديث طويل (١/٧٣ رقم ١)، والبخاري (١/٧٢ رقم ٠٥).

هو إلا درجة قصوى من درجات الإيمان قامت على التأمل في الحجة والبرهان، حتى ثبت ورسخ إيمانك بالله ، فكان كالوجداني ، وحتى كأنك رآء ما استقر رأيك عليه ، وكيف بالتلقي عن الحق سبحانه لهذه العبادات والتشريع جملة وتفصيلا.

نعم يأتي بالشرط الثاني لكلمة الشهادة ، وهو: "وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله" فبها يتحدد مصدر التلقي عن الله وهو الرسول ﷺ ، وقد جاءنا صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله بالقرآن والسنة الغراء ، وأصول العبادات موجودة جملة في كتاب الله عز وجل وتفصيلاً في السنة النبوية ، فقد ذكر في القرآن الكريم إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، والحج ، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (النحل:٤٤) فبين لنا بالفعل والقول تفاصيل المجمل في القرآن الكريم . انتهى المراد من كلام الأخ نعمان أبقاه الله.

[في توحيد الله وعدله واتصافه بصفات الكمال]

من خط الشيخ العلامة نعمان بن قائد بن راجح –حفظه الله وأبقاه– في توحيد الله وعدله واتصافه بصفات الكمال مثلاً :سورة الإخلاص وآية الكرسي ، وقوله سبحانه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ (آل عمران: ١٨) وبعدها ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَـٰمُ﴾ (آل عمران: ١٩) وإذا كان مؤدى الشهادة أن الدين عند الله الإسلام ؛ فإن الشهادة قد أوضحت بصورة قاطعة ساطعة أن الإسلام يقوم على وحدانية الله بالألوهية[1] وقيامه بالقسط .

فأما التوحيد فحسبك فيه سورة الإخلاص وآية الكرسي على أن توحيده بالألوهية يتوقف على توحيده بالربوبية ومبدؤه العقل والتفكر في الكون المنظوم والكتاب المسطور.

وأما كونه القائم بالقسط سبحانه فيجب لمعرفة ذلك أن تعرف أن المتصف بصفات الكمال المطلق ، ومنها العلم والغنى المطلق الذي لا تجوز عليه الحاجة، فلا يفعل إلا الخير ، ولا يرضى لعباده

(١) كونه مألوها معبودا بحق، والربوبية كونه سببا مربيا مالكا رازق العباد.

الكفر، ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ (الزمر: ٧) عنده الصارف عن الظلم ، وهو العلم بقبحه ، وهو عدم الداعي إليه وهو الاستغناء عنه ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ (النساء:١٤٧) ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ (الأعراف:٢٨) لا يختلف معناها الشرعي عن معناها اللغوي ، غير أنه يجب للتوصل إلى العلم الكامل بها أن تفهم بكل ما تعنيه في الجانبين الاعتقادي والعملي ، في الجانب الاعتقادي تعني الخلوص والسلامة ، وفي الجانب العملي تعني الاستسلام والانقياد ، والخلوص والسلامة هما البراءة من الشرك ، وذلك هو التوحيد ، وهو الإسلام وكتب اللغة ، القاموس ومختار الصحاح ، والمفردات للراغب الأصبهاني – متفقة على أن كلمة الإسلام تعني في الجانب الاعتقادي: الخلوص والسلامة يذكرونها باسم البراءة من العيوب والآفات الظاهرة والباطنة ، ومعلوم أن آفة الشرك أعظم الآفات ، ويزيدها الراغب إيضاحًا حيث يقول السلم والسلامة: التعري من الآفات الظاهرة ، والباطنة ، التي يفيدها في الباطن ، قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشعراء:٨٩) وفي الظاهر قوله تعالى: ﴿مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ (البقرة:٧١) حتى قال: والإسلام على ضربين

في الشرع: **أحدهما:** دون الإيمان ، وهو الاعتراف باللسان حصل معه الاعتقاد ، أو لم يحصل ، وإياه قصد بقوله: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّا﴾ الآية (الحجرات:١٤).

والثاني: فوق الإيمان وهو أن يكون مع الاعتراف اعتقاد بالقلب ووفاء بالفعل واستسلام لله. انتهى كلام الراغب[1].

وهذا الخلوص والسلامة الذي نتكلم عنه هو المستعمل الآن في لغة الناس عندنا على حقيقته ومعناه فهم يقولون للشيء الذي لا مشاركة فيه: هذا سَلَمٌ بفتحتين لفلان أي خالص له لا يشاركه فيه أحد ، ويقابله الشيء المشترك بين أكثر من واحد ، وعلى هذا ترى المعنى الشرعي يتعانق ويتلازم مع المعنى اللغوي ، فالقرآن الكريم يقول: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ﴾ (الزمر:٢٩) هذا المثل – ولله المثل الأعلى في السموات والأرض – قال الزمخشري: واضرب لقومك مثلاً في رجل من

---

(١) الراغب الأصبهاني هو الحسين بن محمد بن المفضل أبو القاسم، أديب من الحكماء العلماء ، اشتهر حتى كان يقرن بالغزالي. مؤلفاته: محاضرات الأدباء ، الذريعة إلى مكارم الشريعة، جامع التفاسير، المفردات في غريب القرآن، وغيرها. الأعلام ٢/٢٥٥.

المماليك قد اشترك فيه شركاء بينهم اختلاف وتنازع إلى أن قال وفي آخر: قد سلم لمالك واحد وخلص له.

وعلى هذا ترى أن الإسلام بالجملة هو التوحيد ، ويقابله الشرك قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ (غافر:٨٤) وعند التفصيل نقول: هو استسلام وانقياد عملي في الظاهر ، وخلوص اعتقادي في الباطن، وهذا الخلوص والسلامة في المعتقد هو من أعمال القلب، فهو إيمان إلا أنه ذو طابع خاص تضمنته "كلمة الإسلام" – فأدخلت على الأديان عنصرًا جديدًا في المصطلح الشرعي ، وهو البراءة من الشرك ، ولا يوجد ذلك في "كلمة الإيمان" وحدها من حيث اللغة فهي في اللغة إنما تعني التصديق ، ولا تقتضي البراءة من الشرك .

وهنا أرى الحقيقتين الكُبريين العُظميين اللتين يتألف منهما دين الله وهو الإسلام –قد التقتا وجهًا لوجه على صعيد واحد ، وفي رحاب واحد –وهو القلب والفطرة ، هو رحاب الله عز شأنه؛ فتصافح الإيمان والإسلام وتعانقا وتلازما تلازمًا لا ينفصم ، ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (الروم:٣٠) وكأني بهما يتبادلان

الأحاديث الأخوية ، فيقول الإيمان للإسلام لا شك أن كلامنا في مجال عمله محتاج إلى الآخر بالضرورة ، بحيث لا يوجد أحدهما شرعًا إلا بوجود الآخر ، وإن كان الله قد آثرك بوقوع اسم الدين بشهادة الله عز وجل وملائكته وأولي العلم ، حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾ (آل عمران:١٩) وهو كذلك في جميع كتب الله ومع جميع رسله، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ (آل عمران:٨٥) ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ (الزخرف:٤٥) ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ (النحل:٣٦) فنوح عليه السلام يقول: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس:٧٢) وإبراهيم عليه السلام يقول: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ (البقرة:١٣١) وموسى عليه السلام يقول: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ (يونس:٨٤) والحواريون قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:٥٢) ويوسف عليه السلام قال: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ (يوسف:١٠١) وعيسى عليه السلام يقول فيما حكى عنه القرآن: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ (المائدة:٧٢.) وما من رسول إلا مُطْلعٌ

دعوته للناس ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ (المؤمنون: ٣٢) ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ (هود: ٢) حتى قال الإيمان للإسلام: مع اعترافي أيضًا أنه لولا دخولك إلى مقر الإيمان عندي ما كان في مسمى الإيمان اللغوي سور يعصمني من احتمالات أو ملابسات الشرك ، والعياذ بالله لأن الإيمان لغة إنما يعني التصديق ، والتصديق لا يقتضي البراءة من الشرك ، وإنما أعطانيها الشرع حيث حتم الاجتماع بيني وبينك، فجئت بها أنت، فقال الإسلام -للإيمان: هذا اعتراف ووضوح وبيان يحبه الله، وصحيح أن كلمة الإيمان من الناحية اللغوية وحدها إنما تعني التصديق ، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ (يوسف:١٧) وقوله تعالى: ﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ﴾ (التوبة:٩٤) أي لن نصدق اعتذاركم .

وصحيح أيضًا أن الإيمان لغة لا يقتضي البراءة من الشرك ، بدليل قوله سبحانه: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ﴾ (النحل: ١٠٠) ﴿وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا﴾ (الإسراء: ٤٦) ﴿إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ (الصافات: ٣٥) وقال الإسلام: وأنا بدوري مُقِرٌّ لك بأني

كنت في الظاهر وحده على خطر عظيم ، لولا دخولي إليك وأني اتخذت لي مكانًا في مقر عملك من القلب ، وأدخلت معي لك هدية ، وهي التوكل على الله والإنابة إليه ، والخوف منه ، والرجاء فيه ، والقصد إليه واختصاص الله بالدعاء والعبادة ، ولولا ذلك لكانت الأعمال الصالحة الداخلة في مُسَمَّاي لغة وشرعًا ، باعتبار الظاهر مما لا قيمة له عند الله في الآخرة؛ لأنها بحاجة إلى ما يصححها ويضمن لها القبول عند الله من القصد والإخلاص ، وهما من أعمال القلب وحده ، فالقرآن يقول في هذا: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات: ١٤) ويقولون: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ (الحجرات: ١٧).

وعندما تكلم عن لوط عليه السلام – القرآن وهو المؤمن الموحد و قال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (الذاريات:٣٥-٣٦) وفوق هذا كله أنا معترف لك أيضًا بأن الله عز وجل اختصك بمتعلقات واسعة في آفاق الغيب رفعت الإنسان وصعدت به إلى أقصى ما تصل إليه النفوس البشرية

من الكمال والزكاء والارتقآء من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأن العمل الصالح إن كان لا يدخل في مسماك اللغوي فإنه يدخل في مسكاك الشرعي . انتهى الحوار.

وأقول: ومما يؤكد التلازم الوثيق بين الإيمان والإسلام من القرآن قوله: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ (الممتحنة:٤).

وقد عرفت أن الإيمان لله وحده هو البراءة من الشرك ، وهو الإسلام ، ومثل ذلك من السنة النبوية حديث وفد عبد القيس المتفق عليه ورد ذلك للبخاري ذكره في كتاب العلم[1] قوله ﷺ لهم: (أتدرون ما الإيمان بالله وحده) ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: (شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وتعطوا الخمس من المغنم).

(١) البخاري ١/٢٩ رقم ٣٥.

الفهرس